مجلة الدراسات الفلسطينية، المجلد ١١، العدد ٤٤ (خريف ٢٠٠٠)، ص ١١٥

التركيبة القروية
في مخيم برج البراجنة(١)

ريبيكا روبرتس*

إن مخيم برج البراجنة، الذي أُنشئ للاجئين الفلسطينيين في مطلع الخمسينات من القرن العشرين، يقع في منطقة كانت غير آهلة أصلاً جنوبي بيروت، لكنها أصبحت اليوم جزءاً من الضواحي الممتدة للمدينة. وبحسب مصادر الأونروا، يشغل هذا المخيم مساحة قدرها ١٠٤,٢٠٠م٢، وهو مكتظ بالسكان. فهو يؤوي ١٤,١٦١(٢)لاجئاً مسجلاً. لكن العدد الإجمالي الدقيق لسكان المخيم ليس معروفاً، بسبب انضمام الكثير من العائلات اللبنانية وبعض السوريين والمصريين والسريلانكيين إلى أولئك السكان. لذا، لم يبق في المخيم سوى القليل من المساحات الخالية، ومن الطرقات التي تصل إليها السيارات. أمّا البيوت المكونة غالباً من ثلاث أو أربع طبقات، فإنها متلاصقة على امتداد أزقة ضيقة لا تكاد تكفي لمرور المشاة عليها. وإلى جانب تلك البيوت هناك الكثير من الحوانيت في المخيم، فضلاً عن عدد من المراكز الاجتماعية، والحضانات، ومكاتب المقاومة، ومسجد، ومستشفى حيفا التابع لجمعية الهلال الأحمر الفلسطيني.

يزعم سكان مخيم برج البراجنة أن أصولهم القروية في فلسطين هي التي حددت تقسيمات المناطق في المخيم، لأن السكان القادمين من قرية معينة واحدة، استقروا معاً بمنطقة واحدة في المخيم. ونتيجة ذلك، أصبح المخيم يضم أحياء بحسب قرى المنشأ، وأصبحت القرى المتعددة تشغل مناطق متعددة، ويشار إلى المنطقة باسم قرية معينة. وهذه التجمعات القروية القائمة في المخيمات الفلسطينية في لبنان، كانت موضوع بحث ودراسة لدى بعض الأكاديميين. فهذا باسم سرحان يصف المخيمات الفلسطينية في سنة ١٩٧٥ كما يلي:

> إن سكان المخيمات مصنَّفون وفقاً للقرى الفلسطينيةالتي تحدروا منها، ولا تزال وحدات عائلاتهم الموسَّعة هي الأساس في حياتهم الاجتماعية. وهكذا،

---

(١) ما لم يُذكر غير ذلك، فإن المعلومات الواردة في هذا التقرير تستند إلى البيانات التي تم جمعها من خلال العمل الميداني الذي جرى في صيف سنة ١٩٩٨. وقد أعطي المتحدثون أسماء غير أسمائهم الحقيقية حفاظاً على سرية شخصياتهم.

* طالبة تحضر لشهادة الدكتوراه في جامعة يورك (إنكلترا). والتقرير مستخلص من أطروحة ماجستير قدمت لمركز الدراسات الشرق الأوسطية والإسلامية في جامعة دورهام (إنكلترا).

(٢) أنظر موقع الأونروا في الإنترنت، ١٨ شباط/فبراير ٢٠٠٠؛ http://www.un.org/unrwa

> فإنه الكثير من القرى التي احتلها الإسـرائيليون بالقوة، ثم أخلوها ودمروها في فلسطين، لا تزال حية ومترابطة من الوجهة الاجتماعية.(٣)

وتتحدث روز ماري صايغ في كتابها "أعداء كثيرون جداً: التجربة الفلسطينية في لبنان" (*Too Many Enemies: The Palestinian Experience in Lebanon*)، عن محاولات بعض الفلسطينيين الدؤوبة لتجميع أهالي قراهم ليعيشوا معاً في لبنان:

> لقد أُعيد في مخيمات لبنان بناء الروابط القائمة على قرى المنشـأ من خلال توجهات اجتماعية لتجميع السكان المشتتين، مثلما فعل أبو كمال في تجميع أكثرية أهالي قرية مجد الكروم في شاتيلا.(٤)

فمن الواضح أن أبا كمال تنقل في أنحاء لبنان بحثاً عن أهالي قريته مجد الكروم، لتشجيعهم على الانتقال للإقامة بمخيم شاتيلا.

إن ادعاءات سكان برج البراجنة، والدراسات الأكاديمية السابقة، هي ما دفعني إلى القيام بهذا البحث للتأكد: (١) ما إذا كانت التجمعات القروية قائمة فعلاً في مخيم برج البراجنة، وما إذا كانت تلك التجمعات، في حال وجودها، نتيجة جهود تهدف إلى إعادة تكوين المجتمعات القروية، أو أنها قامت مصادفة. (٢) ما إذا كانت قرى المنشأ تؤثر في حياة أهالي المخيم الاجتماعية. وقد جرى البحث الميداني في شأن هذه الأمور طوال ثلاثة أشهر في صيف سنة ١٩٩٨. وتم جمع المعلومات بصورة غير رسمية من خلال ملاحظات الباحثة، وإجراء ٣٠ مقابلة مرتبة مسبقاً، من دون أية فرضيات محددة، شملت ٥٥ فلسطينياً من المخيم. وقد طُلب من بعض المشاركين أن يرسموا خريطة مبسطة للمخيم تحدد المناطق التي يُطلق عليها، عادة، أسماء معينة، وأن يعرضوا التطور التاريخي لتقسيمات المناطق في المخيمات.

وقد أظهرت نتائج البحث أنه على الرغم من وجود مجموعات قروية، وتجمعات أُخرى وفقاً لنماذج يمكن ملاحظتها، فإن تقسيمات المناطق في مخيم برج البراجنة ليست مقصورة على قرى المنشأ وحدها، وليست كلها مكونة من مناطق يشغلها حصرياً فلسطينيون متحدرون من قرى معينة، كما ذكر السكان، وأشارت الدراسات السابقة. وأظهرت النتائج أيضاً أنه لم يكن هناك أية جهود لتجميع السكان في محاولة لإعادة تكوين المجتمعات القروية السابقة. وقد كشف السكان عن أنه على الرغم من الأهمية الوجدانية التي يولونها لقرى المنشأ، فإن دورها العملي في الحياة الاجتماعية اليومية للمخيم محدود جداً.

---

(٣) Bassem Sirhan, "Palestinian Refugee Camp Life in Lebanon," *Journal of Palestine Studies,* vol. IV, no. 2 (Winter 1975), pp. 91-108.

(٤) Rosemary Sayigh, *Too Many Enemies: The Palestinian Experience in Lebanon* (London: Zed Books, 1994), p. 61.

بنية المخيم

ظل المخيم يشغل المساحة نفسها من الأرض، علماً بأن أجزاء منه شهدت تطويرات واسعة النطاق في أوقات متعددة. فهناك منطقة مجاورة للمخيم تدعى الرمل العالي تنامت بصورة ملحوظة، إذ أقام بها فلسطينيون ولبنانيون منذ الثمانينات. ومع أن هذه المنطقة تقع خارج حدود المخيم المعتمدة لدى الأونروا، فإن سكان المخيم يعتبرونها جزءاً منه. وليس واضحاً ما إذا كانت الأونروا تشمل هذه المنطقة في إحصاء سكان المخيم. ومنطقة الرمل العالي هي الأقل كثافة بين المناطق الآهلة في المخيم، حتى أن بعض سكانها أقاموا أسواراً حول مساحات تحيط ببيوتهم، وجعلوا منها حدائق صغيرة خاصة بهم.

وبحسب إجابات السكان عن أسئلتنا، فإن أسماء مختلف المناطق في المخيم شاعت بصورة طبيعية بين الأهالي، ولم تتغير منذ ذلك الحين. ففي المخيم ست مناطق تحمل أسماء قرى في قضاء عكا، شمال فلسطين، هي: الغابسية، والكابري، وكويكات، وشَعَب، والشيخ داود، وترشيحا. وهناك منطقتان تحملان اسمي مبنيين بارزين هما منطقة العاملية، التي اكتسبت اسمها من الكلية المهنية اللبنانية التي تطل على جزء من المخيم، ومنطقة مستشفى حيفا المحيطة بالمستشفى التابع لجمعية الهلال الأحمر الفلسطيني. كما أن هناك منطقتين أُخريين هما منطقة جيش التحرير ومنطقة صامد، اكتسبتا اسميهما من حركة المقاومة الفلسطينية. وتُطلق في بعض الأحيان أسماء عائلات كبيرة على بعض المناطق. فعائلة الهابط، مثلاً، عائلة كبيرة ومعروفة من قرية كويكات. ولذا، فإن منطقة كويكات تُسمى أحياناً منطقة الهابط. وينطبق الأمر نفسه على منطقة الكابري، التي تُسمى أحياناً منطقة العطعوط، نسبة إلى عائلة كبيرة من عائلات تلك القرية.

والمناطق التي تحمل أسماء القرى أنشئت قبل سواها، وهي، على العموم، أكثر اكتظاظاً بالسكان من بقية أجزاء المخيم. وكل منطقة من هذه المناطق تشتق اسمها من قرية المنشأ للفلسطينيين الذين استقروا بها أولاً. ومع أن هناك كثافة سكانية في هذه المناطق، من أهالي القرى التي حملت تلك المناطق أسماءها، إلاّ إنه توجد فيها أيضاً أعداد كثيرة من السكان المتحدرين من قرى أُخرى. ويفسر السكان أنه حتى في الأيام الأولى لإنشاء المخيم، لم تكن "مناطق القرى" مقصورة على سكان من أهالي قرية معينة حصراً. لكن من المتفَق عليه أن البنية القروية في المخيم كانت في الماضي أكثر صلابة ممّا هي اليوم.

ومع أن منطقة العاملية لا تحمل اسم أية قرية، ولا تسكنها أكثرية من قرية معينة، فقد كانت بين أولى المناطق التي أُنشئت في المخيم. ويشغل هذه المنطقة سكان من

قرى متعددة، بينما أمّ الفرج، وعمقا، والبصّة في قضاء عكا، وحطين في قضاء طبرية. ويزعم أفراد عائلة العدوي، من أمّ الفرج، أن منطقة العاملية نادراً ما تسمى منطقة العدوي.

أُنشئت مناطق مستشفى حيفا وجيش التحرير وصامد، بين سنة ١٩٦٩ وسنة ١٩٨٢، في أثناء وجود حركة المقاومة في لبنان، عندما تمتع الفلسطينيون بحكم ذاتي في المخيمات. وهذه المناطق أقل اكتظاظاً بالسكان من مناطق القرى، ويمكن وصول السيارات إلى أجزاء منها. ويقيم بها أناس متحدرون من أماكن متنوعة كثيرة، معظمها في شمال فلسطين.

أمّا منطقة جيش التحرير فهي المنطقة التي أقام بها عناصر المقاومة وأسسوا فيها مكاتبهم. وقد أُجبرت المقاومة على الخروج من لبنان سنة ١٩٨٢، لكن المقيمين بالمخيم الذين يواصلون أنشطتهم السياسية، يسكنون في معظمهم هذه المنطقة. ويعود اسم منطقة صامد إلى المصانع التي كانت بنيت هناك،[٥] ثم جرى تدميرها وتركها في أثناء الحرب الأهلية، لكن المنطقة ظلت تحمل الاسم.

والمنطقة الوحيدة التي كانت آهلة ذات يوم، وأصبحت الآن مهجورة هي تلك المساحة الجرداء الواقعة بين المخيم والكلية المهنية، والتي أصبح سكان المخيم يستخدمونها موقفاً للسيارات. وليس هناك معلومات أكيدة بشأن مَنْ يملك تلك الأرض، لكن يبدو أنها تقع خارج الحدود الرسمية للمخيم. وحين كانت حركة المقاومة نافذة استخدمت تلك الأرض لإيواء عناصرها في مساكن موقتة، جرى تدميرها في أثناء القتال، ولم يحدث أن أعيد بناء المنطقة منذ انسحاب حركة المقاومة من لبنان.

من فلسطين إلى برج البراجنة

يعتقد سكان مخيم برج البراجنة أنهم يمثّلون نحو ٣٠ قرية فلسطينية، وقد حددوا بالأسماء ١٧ قرية منها.[٦] ويتحدر معظم السكان من قرى ترشيحا وكويكات والكابري، كما أن هناك أعداداً كثيرة من قرى الغابسية والشيخ داود وشَعَب. وتقع هذه القرى الست في جوار مدينة عكا. وهناك عدد قليل من السكان يتحدر من قرى البصّة والشيخ دنّون وأم الفرج والنهر والزيب وعمقا، الواقعة كلها في قضاء عكا أيضاً، فضلاً عن أعداد قليلة جداً من قريتي فارة وسعسع، وكلتاهما تقع إلى الشمال الشرقي من منطقة صفد، وكذلك أعداد قليلة من حطين في قضاء طبرية. كما أن مدن عكا وحيفا

(٥) مؤسسة صامد هي مؤسسة شعبية للعمل، تقدم التمويل والتدريب والتشغيل.

(٦) يعتقد فيليب غوروخوف أن في المخيم سكاناً من ٣٢ قرية. أنظر:
Philippe Gorokhoff, "Création de Évolution d'un Palestinien Camp de la Banlieue de la Sud de Beyrouth-Bourj el-Barajneh," *Politiques Urbaines dans la Monde Arabe* (CERMOC), pp. 3140321.

ويافا والخليل ممثلة في المخيم.

جاء في دراسات أجراها موريس والخالدي وأبو ستة أنه في سنة ١٩٤٨ تم إجلاء السكان عن ٣٦١ قرية، و٤١٨ قرية، و٥٣١ قرية على التوالي.[٧] وبالاستناد إلى سكان برج البراجنة، فإنه لم يكن هناك جهود متعمدة لتجميع السكان وفقاً لقرى المنشأ، وهو ما يجعلنا نتوقع أن يكون عدد القرى الممثلة في برج البراجنة أكثر من العدد السالف الذكر. لكن يمكن جزئياً فهم طبيعة تمثيل القرى في المخيم من خلال تركيبة السكان الفلسطينيين في لبنان، ومن الطريقة التي تنقل بها الفلسطينيون في لبنان أو في سواه من البلاد العربية بعد نزوحهم عن ديارهم.

ففي سنة ١٩٤٨، نزح الفلسطينيون، في معظمهم، إلى البلاد العربية المجاورة الأقرب إليهم. وبما أن لبنان هو أقرب البلاد إلى المقيمين بالمناطق الشمالية من فلسطين، فقد نزح إليه نحو ١١٠,٠٠٠ فلسطيني، معظمهم من منطقة الجليل والمدن الساحلية في فلسطين.[٨] ويوضح الفلسطينيون في برج البراجنة أنه بالنسبة إليهم، لم يكن لبنان البلد الأقرب جغرافياً فحسب، بل كان أيضاً مألوفاً لديهم، نظراً إلى وجود علاقات اجتماعية وتجارية بين القرى على جانبي الحدود. وفي هذا الشأن، يزعم عمر، أحد سكان المخيم، أنه في الأربعينات كان في قريته، كويكات، نحو ٥٠ امرأة لبنانية متزوجات من أبناء قريته. مع ذلك، فإن الكثيرين من الفلسطينيين في برج البراجنة لم ينزحوا إلى لبنان في البداية، وإنما انتقلوا إلى قرى مجاورة، على أمل أن يستطيعوا العودة إلى ديارهم في غضون أيام قليلة. لقد نزح السكان، في معظمهم، على عجل، ولم تكن أمامهم فرصة للتخطيط لنزوحهم أو نقل أملاكهم معهم.

ولكن مع توالي الاعتداءات على المزيد من القرى، وجد الفلسطينيون أنفسهم مضطرين إلى النزوح بعيداً واجتياز الحدود إلى البلاد المجاورة. لكن عزوفهم عن الانتقال إلى أمكنة بعيدة عن قراهم، جعل رحلتهم بين فلسطين وبرج البراجنة متقطعة، بفعل إقامات طويلة بأماكن متعددة. وعلى الرغم من النزوح المضطرب عن القرى في أجواء الخوف والارتباك، وما تلاه من الأسفار والتنقلات العشوائية في المنطقة، فإن المجتمعات القروية لم تتبعثر إلى الأبد، لأن الطريقة التي تنقّل بها الفلسطينيون بحثاً عن الطعام والمأوى ساعدت على التواصل فيما بينهم.

لم يتم إخلاء القرى جميعاً من سكانها كلياً، فهناك فلسطينيون في برج البراجنة،

(٧) Benny Morris, *The Birth of the Palestinian Refugee Problem, 1947-1949* (Cambridge: Cambridge University Press, 1987); Walid Khalidi, *All that Remains: The Palestinian Villages Occupied and Depopulated by Israel in 1948* (Washington: Institute of Palestine Studies, 1992); Salman Abu-Sitta, *The Palestinian Nakba, 1948* (London: The Palestinian Return Centre, 1998).

(٨) Sayigh, op. cit., p. 17.

لهم أقارب ما زالوا يعيشون في قراهم في فلسطين. أمّا القرى التي أُخليت كلياً، فلم يكن يغادرها سكانها دائماً دفعة واحدة. فالكثيرون من الفلسطينيين نزحوا في مجموعات صغيرة مع أفراد أسرهم الصغيرة أو عائلاتهم الموسّعة. وفي بعض الحالات لم ينزح السكان كلهم عن قراهم في وقت واحد. فقرية الكابري، مثلاً، تعرضت للاعتداء عدة مرات قبل أن تفرّغ من سكانها، بحيث أُتيح للبعض أن يجمع القليل مما يملك قبل النزوح.(٩)وفي ذلك يزعم علي، أحد سكان المخيم، أنه وأفراد عائلته جلبوا معهم بعض الماشية من مزرعتهم.

ومع أن النزوح الأولي فرّق سكان القرية، إلاّ إنهم كثيراً ما كانوا يتجمعون جزئياً في قرى أُخرى، اتخذوها ملاذاً آمناً موقتاً لهم. وقد وحّدت تلك الملاذات الآمنة أهالي قرى متعددة، باعتبارها أصبحت مآوي لأهالي القرى المجاورة في المنطقة. فقرية أبو سنان الدرزية، مثلاً، كانت مأوى لأعداد من الفلسطينيين طوال عدة أشهر. وقد شعر الفلسطينيون بأن هذه القرية أكثر أمناً من القرى المسلمة، لاعتقادهم أن القوات اليهوديةكانت تغض النظر عن الدروز عامة. ويتذكر محمود، أحد سكان المخيم، أن فلسطينيين لجأوا إلى قريته، ترشيحا، لأنها بقيت بعيدة عن الاعتداءات حتى تشرين الأول/أكتوبر ١٩٤٨، خلافاً للكثير من القرى الأُخرى في المنطقة. وقد نزح بعض الفلسطينيين إلى لبنان مباشرة، قاصداً قرى قانا وجويّا وبنت جبيل، حيث لجأ الكثيرون ممن يقيمون حالياً ببرج البراجنة.

ويذكر الفلسطينيون أنهم أقاموا بتلك الملاذات الآمنة الموقتة لفترات تصل إلى العامين، مع أن الكثيرين منهم تركوها خلال أسابيع أو أشهر قليلة. أمّا الموسرون منهم، فقد استأجروا مساكن فيها. واضطر آخرون إلى الرحيل عنها إلى مناطق كانت تقدم فيها المساعدات. ومع أن المساعدات كانت متوافرة في قانا، فقد ترك الكثيرون من الفلسطينيين هذه القرية لأنه لم يكن هناك أية فرص للعمل، والأوضاع المعيشية صعبة جداً. بدايةً، جاءت تلك المساعدات من عامة الناس ومن الصليب الأحمر، ثم من هيئة الأمم المتحدة، ومن الأونروا، حين بدأت عملها في أيار/مايو ١٩٥٠.(١٠) وكان الكثيرون من الفلسطينيين المقيمين حالياً ببرج البراجنة، قد أقاموا سابقاً بمخيمات في الجنوب ليكونوا قريبين من فلسطين. ومن المخيمات الأولى التي أُنشئت: الرشيدية، والبصّ، وبرج الشمالي قرب مدينة صور.(١١)وقد انتقل الفلسطينيون آخرون إلى برج البراجنة بعد أن أمضوا أعواماً قليلة في مخيم عين الحلوة في صيدا، وفي مخيمي نهر

(٩) Morris, op. cit., p. 125.

(١٠) وكالة الأمم المتحدة لإغاثة وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين في الشرق الأدنى.

(١١) مخيما الرشيدية والبصّ كانا أنشئا أصلاً للاجئين الأرمن سنة ١٩٣٥. وحين تجاوز عدد السكان طاقتهما الاستيعابية أنشأ الصليب الأحمر مخيم برج الشمالي. أنظر:
Gorokhoff, op. cit.

البارد والبداوي قرب طرابلس.[١٢]

ولم يكن انتقال الفلسطينيين جميعاً طوعياً في بحثهم عن المأوى. فبعض سكان برج البراجنة يتهمون سلطات متعددة بإجبارهم على الانتقال القسري.[١٣] ويزعم فلسطينيون أن قوات الهاغاناه الإسرائيلية أجبرتهم على النزوح عن أبو سنان إلى الضفة الغربية، الخاضعة آنذاك للسلطة الأردنية. ويذكر آخرون أن قوات الجيش العربي أو الأمم المتحدة نقلتهم إلى الضفة الغربية. ويزعم فلسطينيون آخرون أنهم نُقلوا إلى أماكن أُخرى، مثل مدينة حلب في سورية، أو بلدة عنجر في البقاع في لبنان. ويصف هؤلاء الذين أُجبروا على الرحيل، بأنهم نُقلوا في قوافل كبيرة تصل إلى ٦٠ شاحنة. ومع أنه لم يتم فصل أفراد الأسرة الواحدة بعضهم عن بعض، فلم يكن هناك أية جهود لإبقاء أهالي القرية نفسها مجتمعين معاً.

وقد أدت التنقلات الطوعية والقسرية المتواصلة لمجموعات من الفلسطينيين إلى تشتيت مجتمعاتهم القروية. لكن الناس حرصوا، بصورة غير رسمية، على إبقاء الاتصال فيما بينهم. وفي هذا الشأن يشرح بعضهم أن الفلسطينيين حين كانوا يبحثون عن مكان للإقامة، كانوا يسألون دائماً عن أصدقاء أو أقارب، وأين يمكنهم الإقامة. وبهذه الطريقة، علم الكثيرون بوجود مخيم في برج البراجنة، قرب العاصمة، حيث فرص العمل قد تكون أفضل. واستناداً إلى السكان، فإن مخيم برج البراجنة هو أول مخيم أُنشئ بالقرب من بيروت. وكان ثمة فلسطينيون انتقلوا إلى بيروت بحثاً عن عمل، وعلموا بوجود مخيم برج البراجنة بعد أن وصلوا إلى هناك. وأولئك الذين جاؤوا إلى المخيم من مخيمات أُخرى في لبنان في أواخر الخمسينات، يبدو أنهم كانوا يبحثون عن فرص عمل أفضل في العاصمة ومحيطها.

إن العملية غير المنظَّمة لإيجاد مكان للسكن تعني أن أهالي القرية نفسها تفرقوا بين مخيمات متعددة. فقرية كويكات التي تحظى بأوسع تمثيل سكاني في مخيم برج البراجنة، ممثَّلة أيضاً في مخيم الرشيدية. ويمكن العثور على بعض أهالي قرية الكابري في مخيم عين الحلوة. وهناك سكان من قرية الغابسية في مخيمات عين الحلوة والبداوي ونهر البارد، كما في بعض مخيمات سورية. واستناداً إلى امرأة من بلدة حطين مقيمة بمخيم برج البراجنة، هناك شخص آخر فقط من البلدة نفسها يقيم بالمخيم، لأن أهالي حطين، في معظمهم، يقيمون بمخيم عين الحلوة. كذلك يقيم معظم أهالي قريتي فارة والبصّة بمخيم الرشيدية. أمّا أهالي ترشيحا، في أغلبيتهم، فإنهم يقيمون بمخيم برج البراجنة أو بمدينة بيروت. وبما أن القرى الممثّلة في مخيم برج

(١٢) أنشئت مخيمات عين الحلوة ونهر البارد والبداوي بين سنة ١٩٥٠ وسنة ١٩٥٢. Ibid.

(١٣) لم يوضح المتحدثون هوية السلطة التي كانت تجبرهم على الانتقال القسري، وربما كانت الفوضة المحيطة بهم سبباً في عدم معرفتهم هوية تلك السلطة.

البراجنة لها، في معظمها، تمثيل ملحوظ في مخيمات أُخرى، فذلك يثبت أنه خلافاً لما حدث في مخيم شاتيلا، لم تجرِ في مخيم برج البراجنة عملية متعمَّدة لتجميع أهالي القرى.

الوصول إلى برج البراجنة

إن الذين أجابوا عن أسئلتنا متفقون جميعاً على أن العائلات الأولى التي وصلت إلى مخيم برج البراجنة كانت من أهالي ترشيحا. ويزعم محمود، وهو من أوائل سكان المخيم، أن عائلة مصطفى من ترشيحا هي التي سعت للحصول على قطعة الأرض للفلسطينيين. ولئن كان هذا الأمر صحيحاً، فإنه ليس معروفاً على نطاق واسع. ومع أن تفصيلات الحكاية التي يرويها محمود تتناقض مع رواية غوروخوف الذي يناقش أن عائلة الآغا من ترشيحا هي المسؤولة عن إيجاد مخيم برج البراجنة، فإن إمكان مساهمة عائلة من ترشيحا في الحصول على أرض للمخيم منذ البداية، يفسر لماذا كان أهالي ترشيحا من أوائل المقيمين بالمخيم.(١٤) ومن المعروف لسكان المخيم عامة أنه بعد أهالي ترشيحا، جاء أهالي قريتي كويكات والكابري.

وقد تشكّلت تجمعات القرى في برج البراجنة بفضل قيام الكثيرين من السكان الأوائل بتشجيع أصدقائهم وعائلات أُخرى على الانضمام إليهم. وكان الفلسطينيون آنذاك ما زالوا يتنقلون في أنحاء لبنان، ويعتمدون في الاتصال بأصدقائهم وأقاربهم على المشافهة. ويذكر السكان أنهم حين وصلوا إلى برج البراجنة، حصلت كل عائلة منهم على خيمة، وسمح لها بأن تنصبها حيثما شاءت على أرض المخيم. لكن غوروخوف يؤكد أن جمعية الصليب الأحمر، التي تولت الإشراف على المخيم في البداية، فرضت الإقامة بمنطقة "الجورة" أولاً، وهي المنطقة الأكثر انخفاضاً في المخيم، كي تبقى منطقة "التلّ" المرتفعة مكاناً لتخزين المياه، إذ يشكّل ارتفاعها مضخّة طبيعية.(١٥) وهذا ما يؤكد الاعتقاد أن أهالي ترشيحا هم أوائل الذين أقاموا بمخيم برج البراجنة، لأن منطقة ترشيحا تقع في منطقة "الجورة"، ويسميها السكان هكذا، ويسمي المقيمون بهذه المنطقة بقية أجزاء المخيم غالباً منطقة "التلّ".

ويرى الكثيرون ممن أجابوا عن أسئلتنا أن من الطبيعي للناس أن يقيموا مع العائلة والأصدقاء، وخصوصاً في أوقات الخوف والقلق. لذا، فإن أولئك الذين استقرّوا بالمخيم أولاً، غالباً ما كانوا يدعون القادمين الجدد من الأصدقاء والعائلات إلى الإقامة بالقرب منهم. وفي هذا الشأن يرى وليد، وهو أحد لاجئي الجيل الأول من ترشيحا، أن الدافع إلى ذلك هو الأمن والصحبة، لأن أرض مخيم برج البراجنة كانت

(١٤) Gorokhoff, op. cit.
(١٥) Ibid.

في الأصل منطقة مفتوحة ومعزولة، الأمر الذي جعل الكثيرين من سكانها خائفين، ويفضلون أن يكونوا محاطين بالآخرين.

ولمّا كان الكثيرون من اللاجئين مزارعين في فلسطين، فإن أوائل القادمين منهم إلى برج البراجنة وضعوا أيديهم على مساحات واسعة من الأرض حول خيامهم، كي يربوا فيها بعض الماشية والدواجن، أو يزرعوا بعض النباتات المثمرة. لكن علي، أحد اللاجئين من الكابري، يذكر أن عائلته اضطرت إلى التخلي عن إنتاج طعامها، لأن والده كان يدعو أصدقاءه من القادمين الجدد إلى برج البراجنة، كي يأخذوا قطعة من أرضه وينصبوا فيها خيمتهم في جوار خيمته. وسرعان ما أصبحت أرض عائلة علي صغيرة جداً. ولدى بقية السكان حكايات مماثلة. وهذا يفسر كيف تشكّلت تجمعات القرى في برج البراجنة، ويبيّن كيف أنه على الرغم من حرص الناس على الأرض لتوفير حاجاتهم وتحقيق اكتفائهم الذاتي، فقد اعتبروا هذه الأمور قليلة الأهمية، لأنهم اعتقدوا أن إقامتهم موقتة.

ويذكر عماد، وهو لاجئ من كويكات، أن العائلات لم تكن كلها متمسّكة بالإقامة في جوار أبناء قريتها. فعائلته، مثلاً، نصبت خيمتها على قطعة أرض خالية في منطقة الغابسية. وسرعان ما استقر الكثيرون من السكان في جوارهم، حتى أصبحت خيمتهم وسط دائرة من الخيام، فقررت العائلة نقل الخيمة إلى قطعة خالية أُخرى. ولحق بها إلى المنطقة نفسها آخرون من قرية كويكات، الأمر الذي أدى إلى إيجاد حي كويكات في المخيم. وهذه المعلومات تتناقض مع التأكيد العام أن أهالي كويكات أقاموا بالمخيم قبل أهالي الغابسية، إلاّ إذا كان حيّ كويكات لم ينشأ في المخيم قبل أن تُنشئ عائلة عماد بيتها. وتوضح لينا أنها حين وصلت إلى برج البراجنةمع أقاربها، لم تقم بأي جهد للاتصال بأحد من أهالي قريتها. ونستخلص من قول لينا أن الروابط الأسرة المباشرة كانت بالنسبة إلى البعض، على الأقل، أكثر أهمية من الروابط القروية. وهكذا، فقد كان من الضروري الاتصال بأفراد الأسرة، لا بالأصدقاء من أبناء القرية.

ظل الفلسطينيون، كنتيجة مباشرة لنزوحهم الأول في سنة ١٩٤٨، يتوافدون إلى المخيم حتى سنة ١٩٦٠ تقريباً. وقد استقر السكان الأوائل، في معظمهم، مع آخرين من قريتهم وأقاموا معاً بالمنطقة نفسها، حيث بنوا لاحقاً مساكن أكثر ديمومة في مواقع خيامهم. وفي ذلك يقول وليد:

> كان الناس يأتون إلى برج البراجنة بحثاً عن أصدقائهم وأقاربهم. وقد كان من السهل العثور عليهم لو ذهب المرء إلى منطقة تقيم بها أكثرية الأهالي من قرية معينة.

البنية المتغيرة للمخيم

لا تزال عدة مناطق في مخيم برج البراجنة تحمل حتى اليوم أسماء قرى فلسطينية، على الرغم من أن سكان كل منطقة أصبحوا ذوي أصول أكثر اختلاطاً ممّا كانت عليه في الأيام الأولى للمخيم. والمناطق المستجدّة التي أُنشئت بعد فترة من وجود المخيم هي أكثر اختلاطاً من مناطقه القديمة، لأنها تؤوي، على العموم، أناساً ليسوا من سكان المخيم الأصليين، وآخرين انتقلوا إلى هذه المناطق من مناطق أُخرى في المخيم أكثر اكتظاظاً بالسكان. والتنقّلات المتواصلة لسكان المخيم غيّرت بنية المخيم، وأدت إلى مزيد من اختلاط أهالي القرى فيما بينهم. لكن تنقلات الأفراد والعائلات الناجمة عن أسباب شخصية، أكثر من تلك الناجمة عن أحداث كبرى، كان لها الأثر الأكبر والأبعد مدى في بنية المخيم. ومن الأمثلة للتنقل إلى المخيم ومنه وضمنه، لأسباب شخصية أو بفعل أحداث خارجية، ما يوضح كيف تأثرت بنيته.

فها هو حكيم، أحد لاجئي الجيل الأول من قرية كويكات، كان يعيش مع عائلته في الجنوب. وحين تزوج جاء إلى برج البراجنة سعياً وراء فرصة عمل أفضل. ولدى وصوله إلى المخيم في أوائل الخمسينات، استطاع أن يشتري مسكناً بسيطاً مبنيّاً من حجارة الأسمنت ومسقوفاً بصفائح معدنية، كانت في الأصل براميل. وقد شاءت المصادفة أن يقع المسكن في منطقة كويكات. لكن كثيرين ممن جاؤوا لاحقاً، لم يستطيعوا أن يجدوا مساكن بين أناس من أهالي قراهم. وقدرة حكيم على شراء مأوى تشير إلى أن بعض اللاجئين كان يترك المخيم بعد فترة قصيرة من إقامته به.

أمّا رانية، من مدينة عكا، فتزعم أن أبويها كانا أقاما بصيدا مع بقية أفراد العائلة، قبل أن ينتقلوا جميعاً إلى بيروت بحثاً عن العمل. وفي أوائل السبعينات، قرر أبواها أن يكون لهما مسكن خاص بهما، فتركا مسكن العائلة. ولم يكن في استطاعتهما تحمّل تكاليف مسكن جديد خارج المخيم. وبعد فترة، وجدا قطعة أرض خالية في منطقة الرمل العالي المحاذية للمخيم، فبنيا فيها مسكناً، بينما ظلت بقية أفراد العائلة تعيش في بيروت.

وهذه منى، من مدينة عكا أيضاً، تقول أنها انتقلت مع زوجها من بيت العائلة في بيروت إلى منطقة مستشفى حيفا في المخيم، وهي إحدى المناطق المستجدة هناك، كي يصبح لهما مسكن خاص بهما. أمّا ذووها وبقية أفراد عائلتها، فما زالوا يعيشون في بيروت. وهذا الإصرار لدى الأزواج على أن يكون لهم مساكن خاصة بهم، بعيداً عن العائلة الموسّعة، ربما يبدو مناقضاً للتمسك المعتاد بالحياة العائلية في الثقافة والتقاليد العربية. لكن الانتقال من المسكن الأبوي يخضع غالباً لاعتبارات عملية. فقد يكون هناك الكثيرون من الأبناء في العائلة، ثم يتزوج هؤلاء الأبناء ويصبح لديهم أطفال كثيرون، فيستحيل إيواؤهم جميعاً في مسكن واحد. وقد يفضّل البعض أن ينتقل إلى مكان قريب من العائلة، لكن حين لا يكون ذلك ممكناً، يجب إيجاد أي مكان آخر.

والقيود المالية تجبر البعض غالباً على الانتقال إلى المخيم.

والعائلات في المخيم تقوم أيضاً بتوسيع مساكنها، بإضافة امتدادات لها، كلما كان ذلك ممكناً. وتكون تلك الإضافات عمودية عادة، بحيث يفتقد بعضها معايير الأمان. وحين تفوق معايير الأمان محبة الأسرة، يجري البحث عن مساكن لفروع العائلة داخل المخيم. وإذا لم يتوافر مكان ملائم في الجوار، تنتقل هذه الفروع إلى جزء آخر من المخيم، أو إلى منطقة يشغلها أهالي قرية أُخرى غير قريتهم. ويذكر علي، وهو من الكابري، أنه أضاف عدة توسيعات إلى مسكنه لإيواء عائلته المتزايدة، قبل أن يبني مسكناً لولده مع أسرته، ومسكناً آخر لنفسه ولعائلته، في منطقة ترشيحا.

وهناك بين أهالي جميع القرى الممثَّلة في المخيم فئة أسعفها الحظ بالعثور على عمل ذي أجر مرتفع، وأتاح لها ذلك السكن خارج المخيم. وهناك كثيرون يتركون المخيم للعمل خارج البلد، لكن بعضهم يعود. وقد أخبرتنا سيدة متقدمة في السن أنها وأفراد عائلتها غادروا برج البراجنةإلى دولة قطر سنة ١٩٥٨، وحين عادوا، في أوائل الستينات، سرّهم أن يجدوا قطعة أرض خالية لبناء مسكن لهم في جوار أقاربهم. وبما أنها كانت تعيش في منطقة العاملية التي تضم أناساً من أصول قروية متعددة، فإن غيابها الموقت لم يؤثر في بنية المخيم. لكن قيامها ببناء مسكن مجاور لأقاربها هناك أوجد تجمّعاً من المساكن، يتقدّمها الجيل الأول من اللاجئين من قرية أمّ الفرج في منطقة العاملية المختلطة في المخيم. أمّا الأفراد الأصغر سنّاً في هذه العائلة، فقد تزوجوا وتركوا بيت عائلتهم الموسّعة ليكوّنوا مجموعة جديدة من عائلات أم الفرج في أجزاء أُخرى من المخيم.

قبل حرب الخليج، كان الفلسطينيون يسافرون إلى دول الخليج ليعيشوا ويعملوا هناك فترات طويلة. وفي أثناء الحرب، جرى طرد نحو ٤٠٠,٠٠٠ فلسطيني من دول الخليج،(١٦)عاد بعضهم إلى بيروت. ويذكر سكان مخيم برج البراجنةأن نحو ١٠٠ عائلة من الفلسطينيين المطرودين جاءت إلى المخيم. لكن الكثيرين من هؤلاء انضموا إلى بيوت عائلاتهم الموسّعة، ولم يغيّروا في بنية المخيم سوى أنهم زادوا في عدد سكانه، وذهب آخرون إلى بلاد غربية، إذ يبدو أن العائلات المتحدّرة من جميع القرى، لها أقارب في الخارج. وكان للحصار الذي فرضته حركة أمل على المخيم سنة ١٩٨٥ وسنة ١٩٨٦ تأثير كبير في الهجرة، لأن الدول الغربية سهّلت وقتئذ الهجرة للفلسطينيين.

ومع أن فلسطينيين من جميع مناطق المخيم سافروا إلى الخارج أو عاشوا خارجه، فإن سكانه متفقون على أن أهالي ترشيحا هم نسبياً أكثر تركاً للمخيم من أهالي أية

(١٦) Economist Intelligence Unit, Lebanon Country Report, 4th Quarter 1997 (London), p. 13.

قرية أُخرى. ويؤكد الفلسطينيون في المخيم، من مختلف القرى، أن أهالي ترشيحا شديدو الحرص على تعليم أبنائهم، وأنهم يقدمون تضحيات كبرى لتوفير أفضل تعليم ممكن لهم. ولذا، فالكثيرون منهم ينجحون في الحصول على فرص عمل مجزية نسبياً، الأمر الذي يتيح لهم القدرة على إيجاد مساكن خارج المخيم. وقد اعترف الذين أجابوا عن أسئلتنا من أهالي ترشيحا، ممن يعيشون في منطقة ترشيحا، بأن المقيمين هناك ليسوا، في معظمهم، من أهالي ترشيحا. وبما أن هناك بيوتاً أصبحت شاغرة، فقد شغلها سكان من مناطق أُخرى، أو أناس انتقلوا إلى المخيم أول مرة.

ونظراً إلى اكتظاظ المخيم بالسكان، فالوسيلة الوحيدة المتاحة أمام الكثيرين من الراغبين في الانتقال إلى المخيم هي استئجار مساكن شاغرة أو شراؤها. وفي المناطق المستجدة، كمنطقة الرمل العالي، يمكن للقادمين الجدد أن يبنوا مساكنهم الخاصة. ففي هذه المنطقة عدد من الغرباء أكثر مما في بقية مناطق المخيم. وفي الأعوام الخمسة الماضية، لاحظ السكان ازدياداً في عدد "الغرباء" في جميع أجزاء المخيم. فهناك لبنانيون، وسوريون، ومصريون، وسريلانكيون يعيشون هناك، لأن ذلك أرخص من العيش في بيروت. وقد اختار بعض اللبنانيين العيش في برج البراجنة، هرباً من العنف في منطقة الجنوب. ويذكر السكان الفلسطينيون أن اللبنانيين المهجرين هم، في معظمهم، أزواج مع أطفالهم، لأن المسنّين منهم لا يستطيعون أن يتنقلوا باستمرار بين الجنوب والعاصمة.

على العموم، إن الأحداث الكبرى التي أدّت إلى تحركات بشرية واسعة، لم تترك إلاّ آثاراً موقتة في بنية المخيم. فحرب الأيام الستة هجّرت نحو نصف مليون فلسطيني، غير مصنَّفين لاجئين رسمياً. والكثيرون من هؤلاء نزحوا إلى لبنان واستقروا بالمخيمات. لكن معظمهم عاد فغادر إلى بلاد أُخرى، أو إلى الأراضي التي احتُلت سنة ١٩٦٧، علماً بأن بعضهم بقي في لبنان. ويقول سكان برج البراجنةإن بعض الذين شُرّدوا من ديارهم سنة ١٩٦٧ ظلوا في لبنان، وتزوجوا من سكان المخيمات، وحصلوا على بطاقات هوية مزوّرة.

وفي أواخر الستينات، بدأ عناصر المقاومة الفلسطينية بالقدوم إلى مخيم برج البراجنة، وشغلوا المنطقة المقابلة للكلية العاملية. وكان هؤلاء العناصر غير متزوجين غالباً. ولئن جاء بعضهم إلى هذه المنطقة من داخل المخيم، فإنه يبدو أن الباقين أتوا، في معظمهم، من الأردن بعد أحداث أيلول الأسود سنة ١٩٧٠. ويعتقد أحد السكان المسنين أن عدد سكان المخيم ارتفع في تلك الفترة إلى نحو ٢٠,٠٠٠ نسمة، وهو أكثر عدد في تاريخ المخيم منذ يوم إنشائه. لكن وجود عناصر المقاومة في المخيم كان موقتاً، إذ غادره معظمهم سنة ١٩٨٢، حين انسحبت منظمة التحرير الفلسطينية من لبنان. وقليلون من هؤلاء كانوا تزوجوا نساء من المخيم، فبقوا فيه بصورة غير شرعية.

ومع أن آثار وجود عناصر المقاومة في حجم سكان المخيم كانت موقتة، فإن تلك الآثار لا تزال ظاهرة حتى اليوم في بنية المخيم في مناطق جيش التحرير ومستشفى حيفا وصامد.

بعد مجزرة تلّ الزعتر سنة ١٩٧٦، نزح الكثيرون من الفلسطينيين إلى برج البراجنة. وقد مكث بعضهم هناك موقتاً، إلى أن استطاعوا إيجاد مساكن دائمة في أماكن أُخرى. لكن نحو عشر عائلات من تلّ الزعتر، تتحدّر أصلاً من محيط بحيرة الحولة في قضاء صفد، استقرت بالمخيم. وقبل قدومها إلى المخيم، لم يكن بين سكانه أحد من تلك المنطقة. وقد أخبرني أفراد إحدى هذه العائلات أنهم لم يجدوا مساكن متجاورة ليعيشوا معاً. ولهذا، فإنهم منتشرون في أنحاء المخيم. وقد اضطروا بادئ الأمر إلى مشاركة بعض الأهالي في مساكنهم، أو إلى استئجار مساكن شاغرة، وأُجبروا عدة مرات على الانتقال من مسكن إلى آخر داخل المخيم. كذلك جاء إلى المخيم عدد قليل من سكان مخيم شاتيلا، بعد المجزرة التي وقعت هناك سنة ١٩٨٢. وقد بقي بعض هؤلاء أسابيع قليلة، لكن معظمهم، إن لم يكن كلهم، عاد إلى شاتيلا. أمّا الذين بقوا منهم في برج البراجنة، فهم الذين تزوجوا من عائلات مقيمة هناك.

وخلال الحرب الأهلية، شجعت المخاوف على السلامة الشخصية بعض السكان على ترك المخيم، بينما شجعت سواهم على الانتقال إليه. فنور، من سعسع، الذي كان يعيش في بيروت منذ الستينات، ينتقل مع أفراد عائلته إلى منطقة ترشيحا في المخيم في السبعينات، لأنه أصبح خائفاً على سلامتهم. وكان نور استقر أصلاً بمخيم نهر البارد قرب طرابلس، ثم انتقل إلى بيروت في الثانية عشرة من عمره بحثاً عن عمل. وأهالي سعسع قليلون جداً في برج البراجنة، وهم لا يعيشون معاً. أمّا أمل، من قرية الشيخ داود، فعاشت مع عائلتها في مخيم البصّ حتى تزوجت. ويعمل زوجها معلماً لدى الأونروا في بيروت. وقد عاشا معاً في المدينة إلى أن اندلعت الحرب الأهلية، حين شعرا بأنهما سيكونان أكثر أماناً إذا انتقلا إلى المخيم حيث يقيم أقارب لهما. وقد وجدا في المخيم مسكناً في منطقة ترشيحا، واستمرا في الإقامة به لأنهما يشعران بمزيد من الأمان ويفضّلان نمط العيش هناك.

وفي المقابل، ترك بعض العائلات مخيم برج البراجنة في أثناء الحرب الأهلية. تركت لينا، من قرية فارة، المخيم مع أفراد عائلتها، وانتقلوا إلى مسكن شاغر لأحد أقربائهم في بيروت، حيث أقاموا فترة خمسة أعوام، إلى أن عاد أصحاب المسكن. وعندما عادت أسرة لينا إلى المخيم في أوائل الثمانينات، لم تكن عودتها إلى المسكن السابق في منطقة الشيخ داود، إذ قررت أن تبني بدلاً منه مسكناً جديداً لها في منطقة الرمل العالي.

وفي أثناء الحرب الأهلية، توالى تدمير بعض مناطق المخيم وإعادة بنائه. لكن

ذلك لم يغير بنية المخيم بصورة ملحوظة، لأن العائلات، في معظمها، أعادت بناء مساكنها في المواقع ذاتها. ومن هؤلاء حكيم الذي يذكر أنه اضطر إلى إعادة بناء منزله ست مرات.

الأهمية الاجتماعية لقرى المنشأ

تكتسب قرى المنشأ أهمية خاصة لدى الفلسطينيين في برج البراجنة، باعتبارها صلة وصل بالماضي، وواحدة من سمات هويتهم، وجزءاً صغيراً من حياتهم الاجتماعية. لكن الارتباط بقرى المنشأ ارتباط وجداني، صلته بالحياة اليومية ضعيفة. وفي هذا الشأن يقول سكان برج البراجنةأنهم يعاملون الفلسطينيين كلهم بطريقة واحدة، بغض النظر عن أصولهم، وأن لهم أصدقاء من جميع القرى وجميع المناطق في المخيم. فالأوساط الاجتماعية ليست مقصورة على قرية معينة. لكن الذين تحدثنا إليهم اعترفوا، في معظمهم، بأنهم يشعرون بارتياح أكثر حين يلتقون شخصاً أول مرة، إذا كان ذلك الشخص من القرية نفسها، لأنهم يجدون في ذلك رباطاً مشتركاً فورياً. فالأطفال والشباب يعرفون، في معظمهم، القرى التي تحدروا منها، لأن الأفراد الأكبر سناً أخبروهم عنها. والذين تحدّثنا إليهم كانوا جميعاً فخورين بقراهم الأصلية، وقد أصروا على ضرورة نقل المعلومات عن قراهم إلى الأجيال المقبلة.

أكد الذين تحدّثنا إليهم أنه يمكنهم جميعاً العيش في أية منطقة من المخيم. لكن أولئك الذين يعيشون في مناطق قراهم، قالوا أنهم سعداء بذلك، أكثر من العيش في مكان آخر من المخيم. وخلافاً لهؤلاء، زعم الذين يعيشون خارج مناطق قراهم، أنهم لن يكونوا أكثر سعادة إذا عاشوا بين أهالي قريتهم. ويفسر وليد، وهو لاجئ من ترشيحا، هذه الظواهر بالقول أنه كان من الطبيعي للفلسطينيين حين جاؤوا إلى المخيم في البداية أن يفضلوا العيش مع أناس من أبناء قراهم. أمّا اليوم، وبعد ٥٠ عاماً من العيش معاً، فقد أصبح السكان جميعهم يعرفون بعضهم بعضاً، ولم يعد من الضروري أن يكونوا أبناء قرية واحدة.

والكثيرون ممن تحدثنا إليهم شددوا على أهمية العيش في جوار العائلة، أكثر من العيش في جوار أناس من القرية نفسها. وفي هذا المعنى، تقول سيدة من حطين إنه بحسب علمها، هناك شخص واحد من قريتها في المخيم، وأنها لم تلتق به قط. وتضيف أنها سعيدة بالعيش مع زوجها وأسرة ابنها، وبمعرفتها أن أقارب آخرين يعيشون في مساكن مجاورة.

ومع أن غادة، وهي امرأة شابة من قرية البصّة، تقول أنها تود أن يعيش في المخيم المزيد من أبناء قريتها، فإن الذين تحدثنا إليهم من أهالي القرى ذات التمثيل المحدود في المخيم تبنوا، على العموم، وجهة نظر المتحدثة من بلدة حطين. لكن أولئك

الذين لديهم القليل من الأصدقاء المتحدرين من قراهم نفسها، لم يجرّبوا كيف يكون العيش مع أناس من أهالي قريتهم، وقد اعتادوا العيش في هذا الوضع.

أمّا رانية، فتقول أنها تفتقد في المخيم وجود المزيد من أبناء مدينتها عكا، وخصوصاً في المناسبات الاجتماعية. فهي تجد حضوراً كثيفاً من الناس حين يحتفل أبناء القرى الأُخرى، مثل كويكات، بمناسبة معينة أو زفاف. لكن منى، وهي من مدينة عكا أيضاً، لا تشارك رانية في رأيها، وإنما تتبنى آراء الآخرين على هذا الصعيد. إذ إنها ترى أن الاحتفالات لا تقتصر على قرية معيّنة بذاتها، وأن محدودية التمثيل لقرية من القرى في المخيم لا تؤثر في المناسبات الاجتماعية.

والعلاقة التي يرى المتحدثون أنها قائمة بين أهالي القرية الواحدة ليست أكثر أهمية من العلاقات بالعائلة والأصدقاء المقربين. فهم يذكرون أنهم يلجأون في الأزمات إلى أفراد عائلتهم أو إلى أصدقائهم المقربين للمساعدة، وليس من الضروري أن يكون هؤلاء من القرية نفسها. ويرى بعضهم أنه ينبغي له أن يعالج مشكلاته بنفسه، لأن لدى كل امرئ ما يكفيه من المشكلات والعصوبات، وليس مطلوباً منه أن يحاول إيجاد حلول لمشكلات الآخرين. وأكثر ما ينطبق هذا القول على الصعوبات المالية، إذ قليلون هم الذين لديهم فائض من المال يستطيعون تسليفه. ويرى متحدث من قرية سعسع أن من الأسهل للمرء الحصول على مساعدة مالية حين يكون من القرى الكبرى في المخيم، لأنه يجد حوله عندئذ عدداً أكبر من الناس يمكنه أن يلتمس المساعدة منهم. ويمكن للبعض الحصول على المساعدة من الصناديق المالية لقراهم، لكن قليلين من المتحدثين كانوا متأكدين من وجود مثل تلك الصناديق، الأمر الذي يجعلنا نعتقد أن هذا النظام ليس فعالاً.

وعلى مرّ الأيام، تطور لدى السكان مواقف ملتبسة تجاه المخيم. فمع أنه يذكرهم يومياً بوضعهم كلاجئين، إلاّ إنه، في الوقت نفسه، الملاذ الوحيد لهم، الأمر الذي يوجد بينه وبين سكانه شعوراً عاطفياً بالانتماء. ويرى المتحدثون أنه على الرغم من الاكتظاظ السكاني والأوضاع المعيشية الصعبة، فإن مجتمع المخيم متماسك، ولدى أفراده عدد من الأسباب لتفسير هذا التماسك. فالقرى الفلسطينيةكانت، في أكثريتها، قريبة جداً بعضها من بعض، وكان هناك صداقات بين أبنائها قبل مجيئهم إلى مخيم برج البراجنة. وقد تعززت هذه الصداقات في المخيم. كما أن كيفية نشوء المخيم، وتوفير أجواء ملائمة للسكن فيه، ساهما في توثيق الأواصر بين السكان. وقد ذكر المتحدثون إلينا، في معظمهم، الحرب الأهلية، وخصوصاً الحصار الذي فرضته حركة أمل كعامل أساسي في تعزيز تماسك مجتمع المخيم. لكن عدداً منهم، وخصوصاً أولئك الأكبر سناً، انتقد بعض المواقف نحو مجتمع المخيم. فها هو حكيم يقول:

> أشعر بأن أبناء جميع القرى الأُخرى أقربائي – ليس هناك فوارق. وحين كانت الثورة قوية، نسي الجميع قراهم، وفكروا في فلسطين. أمّا اليوم، فقد أصبح الناس أكثر عزلة. بدايةً، كانوا يتطلعون إلى قراهم، ثم بدأوا يتحولون إلى عائلاتهم، وبعدها إلى أُسَرهم. فكيف يمكننا أن نعيش إذا اقتصر اهتمام الأفراد على زوجاتهم وأطفالهم؟

ويؤمن المتحدثون بأنه كان هناك نزاعات بين القرى في فلسطين، لكن أولئك الذين عايشوا تلك النزاعات رفضوا الحديث عنها، بينما قال المتحدثون الشباب أنهم لا يعرفون شيئاً عن تفصيلاتها. إلاّ إن المتحدثين، في معظمهم، أنكروا وجود مثل تلك النزاعات بين القرى. وفي هذا الشأن يقول عماد، وهو لاجئ متقدم في السن من كويكات، إنه في إثر وصوله إلى المخيم، جرت مشادة بينه وبين أناس من ترشيحا في شأن المياه. ويؤكد عماد أنها حادثة من الماضي، وقد طواها النسيان.

ويعتقد المتحدثون أن المشادات الراهنة تقع عادة بين الأفراد أو العائلات، وهي سطحية وعابرة غالباً، لكنها تتطور أحياناً وتصبح أكثر خطورة. وتميل الأطراف خارج النزاع إلى تلافي دعم أحد الفريقين المتنازعين، حتى لو كان ذلك الفريق متحدراً من القرية نفسها. وبما أن الناس يحاذرون الانزلاق إلى النزاعات، فإنهم يميلون إلى إبقائها صغيرة ومحدودة، بدل تصعيدها إلى خلافات كبرى بين مجموعتين. وإذا بقيت المشكلات من دون حلول، يمكن تكليف أحد وجهاء المجتمع التوسط بين المتنازعين. وفي هذا الشأن تقول بدرية، من ترشيحا، إن والدها غالباً ما يُستشار لتقديم النصح في المسائل المثيرة للخلاف. وهذا دور غير رسمي يقوم به، لأنه موضع احترام الآخرين. وهو يعالج المشكلات التي تقع خارج منطقة القرية، مثلما يعالج مشكلات أبناء ترشيحا. ومن الواضح أن هناك أشخاصاً آخرين في المخيم يقومون بمثل هذا الدور. وليس لقرى المنشأ أو للهرمية التقليدية للقرية أثر بارز في تشجيع الناس على أداء هذا الدور غير الرسمي.

إن بنية السلطة في المخيم لا تتأثر بقرى المنشأ. وفي هذا يقول السكان إن الهرمية التقليدية للقرى ليس لها أي دور في المخيم. لكن هناك عدة قرى تتحدر منها عائلات كبرى نافذة، يمكنها أن تمارس بعض النفوذ في المخيم. فعلى سبيل المثال هناك عائلة الهابط من كويكات، وعائلة الجشّي من الكابري. ويشرح المتحدثون أن اللجنة الشعبية حلت محل زعيم القرية التقليدي. ويزعم البعض أن إطلاق صفة "الشعبية" على هذه اللجنة يعود إلى أن كل قرية عيّنت أحد أبنائها عضواً في تلك اللجنة. أمّا الآخرون فيرون أن هذه اللجنة لم تكن يوماً ديمقراطية، ولم تضمّ يوماً في عضويتها سوى أعضاء ينتمون إلى الحركات السياسية.(١٧)

(١٧) Rosemary Sayigh, *Palestinians: from Peasants to Revolutionaries* (London: Zed Books, ٌ

ومنصب مدير المخيم، الذي تعيّنه الأونروا، لا يتأثر بقرية المنشأ. ولم يظهر لدى أهالي ترشيحا أنهم فخورون بأن قريتهم قدمت اثنين من المديرين الفعالين والمحترمين للمخيم. كما أنه لم يكن هناك أي شعور بالحرج لدى أبناء الكابري، لأن المدير المتحدر من قريتهم كان ضعيفاً وبغيضاً. أمّا السكان الآخرون من بقية القرى، فلم يتذمروا لأن أحداً من أبنائهم لم يُعيَّن مديراً للمخيم.

خاتمة

إن الوجود الكثيف لبعض القرى في مخيم برج البراجنة ليس نتيجة مساع اجتماعية متعمّدة من أحد أفراد القرية أو زعيم أو سلطة سياسية لتجميع أهالي تلك القرى. فليس هناك قرية محصورة في منطقة واحدة من المخيم. ولو كان الأمر كذلك، لكان صحيحاً الاعتقاد أن هناك عملية تجميع تمت في وقت من الأوقات. إذ ليس بين السكان من جاء مباشرة إلى بيروت، وانتقل إلى المخيم فور إنشائه. فقد بقي الناس في الجنوب قرب فلسطين، حتى جرى نقلهم، أو قرروا الانتقال طوعياً. والطرق المؤدية إلى المخيم متنوعة وغير مخطط لها. وقد جاء الناس إلى مخيم برج البراجنة من مخيمات أُخرى في مناطق متعددة من لبنان وسورية والأردن.

وساهم حرص الفلسطيني على الانتقال مع أفراد العائلة في الحفاظ على الوحدة الاجتماعية الأساسية، مع أنه لا يبدو أن هناك أية جهود بارزة من جانب الكثيرين للانتقال مع أبناء قراهم. إن الملاذات الآمنة الأولى، والأماكن المحدودة التي توافرت فيها مساعدات للفلسطينيين، والانتقال القسري للفلسطينيين في مجموعات كبيرة، عوامل أتاحت الحصول على معلومات عن العناوين الممكنة لوجود الأصدقاء والأقارب، وللأماكن التي يمكن إيجاد الطعام والعمل فيها، لتعميمها على الفلسطينيين مشافهة.

وما أن وصل اللاجئون إلى المخيم حتى ظهرت تجمعات القرى بصورة طبيعية، لأن الناس يفضلون أن يعيشوا بين أهالي قريتهم. ولم يكن قيام هذه التجمعات ممكناً لولا أن بعض اللاجئين الأوائل في المخيم كان احتفظ بمساحات واسعة من الأرض، تقاسمها لاحقاً مع أصدقائه. ويتضح من ذلك أنه لم يكن هناك جهد بهدف إقامة تجمعات قروية، أو حتى قرار متعمد بهدف الاستقرار ببرج البراجنة أكثر من أي مخيم آخر.

والمناطق التي نشأت وتطورت في المخيم في أثناء وجود المقاومة، كانت بفضل

1979), p. 169.

في صفحة ١٦٩ تذكر صايغ أن اللجان الشعبية استبعدت عن عضويتها الأشخاص الذين ليس لهم انتماء سياسي.

تمتع الفلسطينيين بالحكم الذاتي في المخيمات، وتوافر الموارد المالية لتحقيق ذلك التطور. وظهور هذه المناطق في تلك الفترة لبى حاجات عملية وسياسية، بمعزل عن قرى المنشأ، ومن دون أن يهدف إلى إقامة تجمعات قروية.

والتقلبات في بنية المخيم هي نتيجة عدم الاستقرار والأوضاع الصعبة التي يعيشها الفلسطينيون في لبنان. وليس هناك نموذج سلوكي محدد يحكم الانتقال إلى المخيم أو منه أو ضمنه. فالعوامل الاجتماعية والسياسية المؤثرة في انتقال الأفراد متنوعة ترتبط بالأوضاع والأحكام المرافقة لها. والنتيجة هي حركة سكانية متواصلة، وتقلص لبنية القرى في الأجزاء القديمة من المخيم، ومزيد من الاختلاط، وارتفاع في عدد القرى الممثَّلة فيه. أمّا بقايا بنية القرية، وتاريخ نشأتها في مخيم برج البراجنة، فتبقى ماثلة في أسماء المناطق المتعددة.

والعائلة هي الوحدة الاجتماعية الأساسية في المخيم، وأهميتها أكبر من أهمية قرية المنشأ. فمن الواضح أن قرى المنشأ أصبحت أقل أهمية من مجتمع المخيم الذي تحول إلى وحدة اجتماعية متماسكة عبر الأعوام الخمسين الماضية. ومع أن الأفراد الأكبر سناً في المخيم يشعرون بأن مجتمع المخيم لم يعد متماسكاً كما كان سابقاً، وأن أفراده أصبحوا أكثر اهتماماً بأنفسهم وبعائلاتهم منهم بسكان المخيم عامة، فإن المتحدثين يرون، في معظمهم، أن هناك شعوراً بالانتماء إلى المجتمع في المخيم. فالتجارب المشتركة التي مر بها سكان المخيم من أعمال العنف والفترات الصعبة، طوال الأعوام الخمسين الماضية، ساهمت في إزالة العوائق بين أهالي مختلف القرى، وأوجدت وحدة اجتماعية جديدة. فمخيم برج البراجنة، اليوم، مجتمع واحد، لا سلسلة من مجتمعات القرى التي يعيش أهاليها معاً في المخيم.■

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
http://www.palestine-studies.org/ar/mdf